التغير الاجتماعى ركيزة لسلوكيات جديدة

فى الربع الأخير من قرننا المنصرم، وبالتحديد فى الفترة ما بين ١٩٧٥ ــ ٢٠٠٠ وبعد حربنا الرمضانية الأكتوبرية عام ١٩٧٣ مباشرة دخل مجتمعنا المصرى فى جوف بعض الغياهب والسراديب النفسية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية وتغير واقع الحياة المصرية من حياة آمنة مستقرة ذات عيشة راضية إلى حياة حائرة مضطربة ذات عواصف اجتماعية عاتية.

وقد يكون ذلك رد فعل لانتصارات أكتوبر المجيدة حيث بدأ الإنسان المصرى ينعم بالاعتزاز بالشرف القومى، والزهو بالانتماء الوطنى والفخر بالنصر المبين، ومن المعلوم أنه بعد الانتصار يبدأ الاستقرار وعندما نضع الحرب أوزارها يأتى دور التنمية، ويشعر المجتمع فى بناء وإصلاح ما أفسدته الحرب، وهنا يخلد الأفراد نحو السكينة والاسترخاء لينعموا بجنى ثمار النصر، وتنتابهم بعض التطلعات الطبقية لتعويض من مروا به من حرمان معيشى لاقتناء كل ما هو جديد وعصرى، ومن ثم يتهافتون على كل ما هو أجنبى أو غربى

د.عزت عبدالعظيم الطويل
أستاذ علم النفس بكلية الآداب
جامعة بنها

للدخول فى منظومة التغريب والتأمرك التى تبدأ بتقليد الموضة، وتناول أطعمة «ماكدونالدز» من «الهمبورجر» و «الهوت دوجز» و«البيتزا» ومرورا باقتناء الأجهزة الاتصالية ذات التكنولوجيا الحديثة مثل: «الدش» والفيديو و «التليفزيون» و «الكمبيوتر» و «الانترنت» وصولا إلى تقليد ثقافة «الهيبز» و رعاة البقر عملا وقولا وسلوكا، وهنا تحدث الطامة الكبرى، وذلك من تأثير أجهزة الإعلام المحلية والأجنبية كما نرى البعض يعيش فى سعة من العيش الرغيد وذلك بفضل الانتاج الاقتصادى الاستهلاكى فى السبعينيات وآخرون يعيشون على حد الكفاف، ومنهم من صارت حياته المعيشية تحت حد الفقر كسكان المقابر وأغلبية صامتة كصمت الحملان تحاول أن تكسب عيشها بشق الأنفس وتتميز غيظا من الإعلانات التليفزيونية المستفزة وتمقت طبقة أبناء الذوات المنفرة، وهنا تتآكل الطبقة الوسطى وتصبح لا وجود لها أو تكاد نتيجة الصراع الطبقى في المجتمع من ناحية ورد فعل لعملية الحراك الاجتماعى من ناحية أخرى ولا غرو فى ذلك . فقد أدت سرعة الحراك الاجتماعى أن طغت القيم المادية العاتية على سلوك الناس فتدنت أخلاقهم.

إن انفتاح فرص الترقى الاجتماعى والاقتصادى لم يكن لها وجود من قبل مما أدى إلى صعود بعض الطبقات الاجتماعية فى المجتمع وسقوط بعضها الآخر نحو هاوية الانحراف السلوكى فرأينا ـ على سبيل المثال ـ جماعة تتمسك بالقيم وفضائل الأخلاق وتقبض بها كالقبض على جمر من النار، وجماعات أخرى مشغولة بالعبث بالشرف والفضيلة والحق والخير والتعاون والتكافل وتؤمن إيمانا راسخا بالتهاون والتسبب والفهلوة والشطارة والانحلال والتحلل.

ويرى الكاتب ـ أن ذا الضمير الحى صاحب المبدأ الذى يتسم بالالتزام والانضباط وصدق الوعد والوفاء بالعهد، والاحساس بالآخرين، والمحافظة على السمعة والذود عن الكرامة الشخصية والإيمان بالواحد الرازق، يرى أن كل هذه القيم الراسخة ـ فى زمننا هذا ـ لم يعد لها شأن يذكر كسابق عهدها، فأمامك رجال كالنخل، ولكن ما يدريك ما الدخل؟ فى ظل «العلمنة» والنفاق، والفهلوة والتنوير والمسايرة والتسيب، والفن الاباحى، والهوس الكروى، والإعلام الموجه، وانعدام القدوة وأخيرا «العولمة» فى ظل كل هذا هان المبدأ، وماتت المروءة وولى الإخلاص، وتلاشت القيم وجفت ينابيع الحب الأصيل، وتلاشت الأخلاق.

ذات مرة قال لى أحدهم ـ لا فض فوه ـ الحياة سريعة التغير وبالمادة نحيا ونعيش ونستمتع بكل ما هو جديد ومريح، وإخلاصك النادر لكل ما هو قديم سواء كان هذا القديم: زوجة أو صديقا أو مسكنا أو سيارة أو وعدا أو عهدا أو اتجاه أو توجها أو عاطفة أو عقيدة.. كل هذا رجم بالغيب وأراجيف وخزعبلات لا وجود لها فى زمننا ولا يليق بك ـ كأستاذ جامعى ـ أن تأخذ بها أو تتبناها بين حنايا الضلوع إذا كنت تريد الصعود فى السلم الطبقى!! وهنا نتساءل: ماذا حدث للإنسان المصرى؟ وكيف كان تأثير عملية «الحراك الاجتماعى على حياته؟ وماذا أصاب هذا الإنسان ليتغير سلوكه من النقيض إلى النقيض على عقبيه؟ ولكى نجيب على مثل هذا السؤال نقول فى بداية عام ١٩٥٢ أى عند قيام ثورة يوليو حدثت عدة هزات في المجتمع المصرى فى المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية.

ففى الجانب الاقتصادى والسياسى شهدت مصر مراحل فى بداية الثورة وحتى أواخر السبعينات أولى هذه المراحل أن المجتمع المصرى قد مر بعدة تقلبات فكرية وسياسية عاصفة يكتنفها التناقض أحايا والتباين أحيانا أخرى، وهنا اتجه المجتمع توجها جديدا عما كان قبيل الثورة وكان توجها ايديولوجيا